قصة قصيرة

يوم من حياة عزمي محمود

نيروز مالك

الاسم: عزمي محمود، رقم الاضبارة/ ٣٥٤٨/
العمر: ٣٢ عاماً
المهنة: موظف...
مكان العمل: مؤسسة التبغ والتنباك.
تاريخ التقرير الأول: ٢١ أيلول ١٩٦٩

★ ★ ★

أبعد الضابط الاضبارة بيده، بعيداً عنه، عندما بدأ قراءة آخر التقارير عن المدعو عزمي محمود...

★ ★ ★

استيقظ في الساعة الثامنة صباحاً، تثاءب عدة مرات، فتح عينيه، أغمضهما ثانية، ركن إلى الهدوء لدقيقة واحدة، عاد وتثاءب بملل، فتح عينيه، رفع جذعه إلى الأعلى، أسنده إلى طرف السرير، تناول علبة التبغ، سحب منها سيكارة، بلّل مقدّمها بلعابه، وضعها في فمه، تناول علبة الكبريت، فتحها، سحب منها عوداً، أشعله، قرّب اللهب المعلّق برأس العود من طرف السيكارة، سحب نفساً منها، شعر بطعم مرّ في فمه، بلع ريقه، حدّق في النافذة، رأى شجرة التوت تتحرك بفعل الريح، ألقى اللّحاف عن نفسه، سحب طرف منامته حتى وسطه، قام، جلس على طرف السرير، أحنى رأسه إلى الأسفل، نظر في الأزهار المطبوعة على السجادة الصغيرة، حدّق في أظافر قدميه، انتعل خفّة، قام عن طرف السرير، تمطّى رافعاً يديه إلى الأعلى، أحنى رأسه إلى الوراء، خطا نحو المطبخ، أشعل المصباح الكهربائي، أدار نظره في المطبخ، تناول عدّة القهوة من الرّف، أشعل موقد الغاز، وضع الركوة على النار، وضع في الماء ملعقتين من السكر، حركه في حركات دائرية، ذاب السكر في الماء، ترك الملعقة في يده، تناول عقب السيكارة من فمه، ألقاه في المجلى، حدّق في بصيص النار وهو ينطفىء، انتبه إلى غليان الماء في الركوة، رفع الركوة عن النار، وضعها جانباً، أخذ ثلاث ملاعق من البنّ الأسود، وضعها في الماء المغلي، رفع الركوة، وضعها على النار، حرّك البن، مزجه بالماء، فار الماء، رفع الركوة، ظل يحرك الماء الممزوج بالبن، هدأ الغليان في الركوة، وضع الركوة على النار ثانية، عاد وفار الماء الممزوج بالبن، رفع الركوة مرّة أخرى، أطفأ موقد الغاز، تناول فنجان القهوة، سكب فيه القهوة، ملأ كوباً من الماء، وضعه على الصينية، تناول الصينية، خرج من المطبخ، دخل غرفته، وضع الصينية على الطاولة، جلس على طرف السرير، شرب قليلاً من الماء، تناول فنجان القهوة، رشف منه رشفة طويلة، تناول علبة التبغ، سحب منها سيكارة، بلّل مقدّمها بلعابه، وضعها في فمه، تناول علبة الكبريت، سحب منها عوداً - كان مكسوراً - أشعله، قرّب لهبه من السيكارة، سحب منها نفساً عميقاً، أسند ظهره إلى طرف السرير، حدّق في النافذة، رأى شجرة التوت، التفت، تناول فنجان القهوة بين أصابعه، رفعه إلى فمه، رشف منه رشفة، أعاد الفنجان إلى مكانه، سحب من سيكارته نَفَساً عميقاً، تأمل أشعة الشمس المنسكبة على الأوراق، كانت شفّافة رقيقة، أشبه بالحلم، نفض رماد سيكارته على الأرض، مدّ يده إلى فنجان القهوة، رشف منه الرشفة الأخيرة، سحب نَفَساً من سيكارته، سحق العقب في المنفضة، شبك أصابع يديه وراء رأسه، أطلق كمية من الدخان، من أنفه وفمه، حدق في السقف طويلاً.

قام عن السرير إلى المطبخ، جهّز فطوره، كان مؤلّفاً من قطعة جبنة، وقليل من الزيت والزعتر، وصحن من مربّى الكرز، وضع الفطور على صينية صغيرة، وضعها جانباً، تناول قطعة خبز، وضع إبريق الشاي على الموقد الغازي، تناول فطوره ببطء، ثم شرب كوبين من الشاي، قام، ارتدى ثيابه، نظر في الساعة، كانت تشير إلى العاشرة، انتعل حذاءه، خرج من البيت بعد أن أطبق الباب خلفه بأحكام.

★ ★ ★

توقف الضابط عن قراءة التقرير، ثم التفت إلى أحد العرفاء القريبين منه، وسأله:

- هل من أخبار جديدة عن الطالب «عبد الحميد غولي»؟

أجابه العريف: لا. لا تزال معلوماتنا مستمدة من النشرة

الطبية القديمة. يقال إن حالته في خطر.. فهو لا يزال فاقداً وعيه..

هزّ الضابط رأسه، ثم التفت أمامه ثانية، وعاد إلى متابعة قراءة التقرير.

★ ★ ★

مرّت سيارة بيضاء، مرّت فتاة صغيرة مرتدية ثياباً مدرسية، مرّ رجل أصلع، مرّت فتاتان شهيّتان، أحداهما كانت مرتدية بنطالاً، لاحق بنظره ردفيها النافرين، سحب نَفَساً من سيكارته، أطلق كمية من الدخان، نفض سيكارته، مرّت سيارة صغيرة صفراء اللون، تقودها امرأة في اواسط العمر، رأى فتاة طويلة قادمة من الشارع الثاني، ظلّ ينظر إليها، عرجت إلى الشارع الآخر، سحب نَفَساً من سيكارته، مرّ به النادل، هتف به: منذ نصف ساعة وأنا جالس انتظر أن تجلب لي القهوة. ردّ النادل: آسف على تأخري يا أستاذ، سأجلبه لك في الحال، مرّت سيارة شرطة تصدر صوتاً مزعجاً...

★ ★ ★

توقف الضابط عن قراءة التقرير، ثم تناول قلماً أحمر، ووضع خطاً تحت جملة «تصدر صوتاً مزعجاً»، ثم عاد إلى متابعة قراءته.

★ ★ ★

نفخ شرطي مرور في صفارته، حرّك يده مشيراً إلى رتل السيارات بالإسراع، وضع النادل فنجان القهوة على الطاولة، قال: تفضل أستاذ. ذهب النادل، مدّ يده إلى السكر، وضع ملعقتين منه في الفنجان. مرت امرأة مثيرة، نفذت رائحة عطرها زجاج واجهة المقهى، ضغط ساقيه على بعضهما، أرخى ساقيه، حرّك السكر في فنجان القهوة، رشف منه رشفة، تناول سيكارة من علبة التبغ، وضعها في فمه، أشعلها بعقب السيكارة الأولى، عبّ منها نفساً عميقاً، لاحق بنظره فتاة رائعة الجسد، مرّ جمع من العساكر، أخفى الجمع الفتاة عن نظره، استاء من مرورهم في هذه اللحظة بالذات.

★ ★ ★

وضع الضابط تحت كلمة ا«العساكر»، وتحت جملة «استاء من مرورهم» خطاً بالقلم الأحمر، ثم تابع قراءة التقرير.

★ ★ ★

حيّاه أحد الأصدقاء، جلس قربه، طلب الصديق فنجان قهوة، أكّد للنادل أنه في عجلة من أمره، ربت الصديق على كتفه، سأله: أراك شارداً؟ ابتسم للصديق، لم يردّ على تساؤله، رشف من قهوته رشفة، سحب نفساً من سيكارته، تقدّم النادل من طاولتهما، قال: صباح الخير أستاذ. ثم وضع فنجان القهوة أمامه، ذهب، وضع الصديق ملعقة سكر في فنجان القهوة، حرّكها، رشف منها رشفة طويلة، مدّ يده إلى جيبه، لم يجد علبة التبغ، مدّ يده إلى علبة تبغه قال: اتسمح بسيكارة؟ هزّ رأسه بالموافقة، أخذ الصديق سيكارة، أشعلها، سحب منها نفساً، قال: ما هي الأخبار السياسية اليوم؟

★ ★ ★

توقف الضابط عن قراءة التقرير، ثم وضع خطاً بالقلم الأحمر تحت كلمة «السياسة» وما لبث أن تابع قراءته بعد تثاؤب طويل.

★ ★ ★

أجابه: لا أدري، ثم أردف، ألا تعرف، لست من هواة السياسة؟ غمغم الصديق، رشف من فنجان القهوة الرشفة الأخيرة، قام، قال: استودعك الله، لديّ عمل وعليّ أن أؤديه. هزّ رأسه للصديق، تابع بنظره حوض امرأة أثناء عبورها من أمام واجهة المقهى الزجاجية، وقف قربه بائع يانصيب، ظلّ يزعق في أذنيه مدة. لم يلتفت إليه، ذهب البائع، مرّت سيارة، مرّ رجل له لحية رجل دين برفقة امرأة متشحة بثياب سود، قدّم له النادل كوب ماء بارد، ذهب، حيّاه أحد الأصدقاء، التفت إليه، ابتسم له: أهلاً، جلس الصديق إلى جانبه، وضع يده على كتفه، ضغط الصديق: كيف الأحوال؟ أجابه: لا بأس، كيف عملك؟ أجابه: روتيني، ممل، قاتل. لقد مللت كل الأعمال الوظائفية. ضغط الصديق ثانية على كتفه، قال: ما يهمك. سأله: لم نرك البارحة. أجابه: شغلت. ضحك الصديق، علّق: أراك هذه الأيام مشغولاً كثيراً؟ ابتسم، تابع الصديق: هل تبحث عن خطيبة، ابتسم، أجاب: أبداً، هذا الأمر آخر شيء يمكن أن أفكر به. سأله الصديق: لماذا؟ هل أنت عنّين؟ ضحكا معاً، قال: أنظر: التفت إلى واجهة المقهى، فتاة مثيرة كانت تسير على الرصيف. قال الصديق: أنظر إلى لدونة ردفيها، هزّ رأسه فقط، لم يجب. تنهد. سأله الصديق: قل هل انتهيت من رواية «هذا الجسد»، أجابه: تقريباً. أردف: ابحث لي عن رواية أخرى من هذا النوع، لقد ألهبت خيالي. ضحكا معاً، تناول علبة التبغ، قدّم لصديقه سيكارة، سحب كل واحد منهما نفساً عميقاً من سيكارته، غاص كل واحد منهما في نفسه. مرّت سيارة، مرّ ثلاثة رجال من أمام واجهة المقهى الزجاجيّة، مرّت فتاة صغيرة شقراء الشعر، تشد وراءها كلباً أبيض الفراء، علا زعيق بوق سيارة، علا صوت بائع يانصيب قرب رأسه، تعالى فوق رأسه صوت أحد الأصدقاء محيّياً. التفت وصديقه إلى المحيّي الذي جلس إلى طاولتهما. قال بلا مقدمات: يا لهذا البلد الزفت!

★ ★ ★

قطع الضابط قراءته، ووضع بالقلم الأحمر خطاً تحت جملة «يا لهذا البلد الزفت» ثم تابع القراءة.

★ ★ ★

قولا لي: كيف تقضيان أوقاتكما. لم يردّا عليه، ظلاّ

صامتين، صفق الصديق بيديه، صاح: كرسون، قهوة. مرّت امرأة سمينة لدرجة القرف، تتململ ككتلة شحمية تحت ثوب أسود، بصق أمامه، مدّ نظره في البعيد، سيارات، رجال، نساء، أطفال، حوانيت مفتوحة، وأخرى مغلقة. تناول علبة التبغ، سحب منها سيكارة، وضعها بين شفتيه، أشعل طرفها، مرّت امرأة مثيرة، مرّ طفل يحمل وجهاً بريئاً للغاية، سحب نفساً من سيكارته، مرّ شرطي سمين له كرش مندلق أمامه بصورة تلفت النظر، مرّت فتاة تحمل باقة من القرنفل الأحمر، التفت إلى صديقه قبل أن يقوم منصرفاً، قال: لا تَنْسَ غداً أجلب لي معك رواية. سكت، تابع حديثه بلهجة ذات مغزى، رواية غرامية تفتح النفس. ضحك الصديق، قال له: ليكن، تابع: هل أعجبتك الأولى؟ أجاب: جداً، لقد اعجبني دور الفتاة، أما الأم، فكان دورها هزيلاً، اعتقد كانت معقّدة في حياتها الجنسية؟ أجاب الصديق: لقد قرأتها منذ خمس سنوات، لم أعد أتذكر تفاصيل احداثها. ضحك قال: انصحك أن تقرأها مرة ثانية، إنها مثيرة كقفا هذه الفتاة. خرجت الفتاة من نطاق زجاج واجهة المقهى، ضحكا معاً، قام، سأله الصديق: إلى أين؟ أجابه: إلى البيت، لقد قاربت الساعة الواحدة والنصف، لديّ موعد في البيت...

★ ★ ★

توقف الضابط عن القراءة، ووضع خطاً بالقلم الأحمر تحت جملة «لديّ موعد في البيت»، ثم تابع قراءة تقريره.

★ ★ ★

خرج من المقهى، شعر بحرارة الجو تلفح عنقه، ظلّ سائراً إلى موقف الباص، تكاثفت حبيبات العرق اللزجة على جبينه، انزلق بعضها على أنفه، وتجويف عينيه، أحسّ بحرقة كاوية بين أجفانه، أغمض عينيه، كانت أشعة الشمس الحامية تدير رأسه، حاول أن يسلك الشريط الظليل من الطريق، وصل إلى موقف الباص، احتمى مظلة قماشية مهدلة أمام واجهة حانوت، اتكأ على ساقه اليمنى للحظة، تعب، أرخى جسده على ساقه اليسرى، تطلع إلى منعطف الشارع الذي سيقبل منه الباص، أحسّ بساعده يدفعه إلى الخلف، التفت، رأى عجوزاً يحاول ايجاد مكان ظليل لنفسه تحت المظلة، أفسح له مكاناً، شعر أن الشمس تلقي بأشعتها على نصف جسده من الأسفل، مرّت بقربه فتاة، تركت وراءها رائحة مزيجة من العطر وعرق حاد، تابع حركة ردفيها اللدنين حتى اختفت في المبنى، وقفت امرأة أمامه، سمع ضوت هدير الباص، كان قادماً، وهو ينفث خلفه دخاناً أسود، شاهد تحرك الناس، تدافع الركاب، علا اللغط، وجد نفسه وسط الركاب، يسير باتجاه باب الباص الذي توقف دون إرادة منه، قوة من خلفه تدفعه إلى الأمام، شعر بامرأة تلاصق جنبه، تولدت في أعماقه رغبة مجنونة في احتضانها، تأخر قليلاً، أصبحت أمامه بالضبط، لاصقها تمنّى لو أن الزمن توقّف عند هذه اللحظة، لو تجمد للحظات لا غير. التفتت المرأة إليه، شاهد نظرة جامدة في عينيها، لم يبال، ظل يضغط، وصل الباب، صعد، وجد نفسه أمام مقعد خال، جلس عليه، تأمل المارة من النافذة، بعد لحظة سمع صفارة الجابي، تحرك الباص، بحث بنظره عن المرأة بين الركاب، لم يجدها، مط رقبته، لم يجدها، التفت إلى اليمين، رآها. كانت جالسة قربه، وجهها جامد، تقارب الأربعين من العمر، ممتلئة الجسم، ضخمة الصدر والساعدين. كان العرق ينساب خيوطاً على صدره، تحت أبطيه، أمامه رجل أصلع، شاهد حبيبات العرق تنساب من قمة رأسه العاري إلى عنقه الحمراء، إلى جانبه جلست عجوز، مصبوغة الشعر، مرّت شاحنة ضخمة قرب زجاج نافذة الباص، تركت في أذنه صوتاً مزعجاً، شاهد على الرصيف ناساً يمشون، تخطفهم سرعة الباص إلى الوراء واحداً بعد الآخر. أدار رأسه، شاهد صلعة الراكب أمامه، التفت إلى نافذة الباص. كانت أشجار الحديقة تنخطف إلى الوراء. ابتسم لأمر غامض في نفسه، وصل الباص به إلى الموقف الأخير، قام، نزل، سار باتجاه البيت.

★ ★ ★

توقف قارىء التقرير عندما علا صوت العريف في أذنيه:

- سيدي؟

- ما بك؟

- سيدي طلب مني سيادة الرائد أن اعلمك بأن رجالنا قد ألقوا القبض على أحد الرجال المشتبه بهم... والتحقيق معه سيتم بعد ساعة.

هزّ الضابط رأسه، ثم تابع القراءة.

★ ★ ★

وصل إلى البيت، فتح الباب، انسل إلى الداخل، خلع حذاءه، ثيابه، ارتدى منامته، دخل الحمّام، أخذ دوشاً، نشّف جسده من الماء، ارتدى سرواله الداخلي، ارتدى قميصه الداخلي، ارتدى منامته. خرج من الحمّام، أطفأ الضوء، تقدّم من السرير، استلقى عليه، أغمض عينيه للحظات، ما لبث أن فتحها، حدّق أمامه، في النافذة، حيث شجرة التوت المورقة. التفت إلى جانبه، تناول رواية «هذا الجسد» عن الطاولة، فتح صفحاتها، راح يقرأ:

(في تلك اللحظة، لم تكن وداد قد عرفت نواياه بعد. كانت لا تزال تعيش حالة القلق والاضطراب من أن يخدعها، يتركها بعد أن يقضي وطره منها. هذا الإحساس جعلها تخفف من سرعة خطواتها، وتتساءل في داخل نفسها: هل تذهب إليه؟ أم لا؟

وقفت هنيهة تحت شجرة ظليلة والاضطراب والخوف يعصفان باعماقها. تلفتت حولها. ما لبثت أن تابعت طريقها، وصوت ما في ذاتها يحثها على الذهاب إليه، يقول لها: ماذا يستطيع أن يفعل بك إن أنت لم تسمحي له؟... كوني يقظة، لا تسمحي له بأكثر من المداعبة...)

أطبق الكتاب، عضّ على شفته.. عاد، فتح الكتاب، وتابع

القراءة:

(قرعت الجرس، وبعد هنيهات من وقوفها، فتح الباب على وجه شاب جميل الصورة. ظلّ واقفاً بالباب وهو يبتسم بعذوبة، ثم تنحى لها عن الطريق وقال:

- تفضلي، تفضلي يا أجمل فتاة في العالم.

ضحكت وقالت له وهي تدخل:

- قل لي، كم فتاة قلت لها مثل هذا الكلام؟

- وقف الشاب، ونظر إليها نظرة فيها عتاب:

- لا أسمح لك بقول مثل هذا الكلام، أنت تجرحين كرامتي.

ثم ابتسم، واقترب منها، وأخذها بين ساعديه، ثم قرّب وجهه من وجهها وهو يقول لها بصوت هامس:

- أنت أول فتاة أقول لها مثل هذا الكلام يا غزالتي. أقسم لك بحبنا.

ساد صمت عميق بينهما، قطع الصمت صوت موسيقى، ثم بعد لحظات تصاعدت التنهدات، وخيم عليها قليل من الأضواء الحمراء وهي تترك جسدها بين يديه..)

أطبق الكتاب، عضّ شفته، أنقلب على بطنه، ضم الوسادة بين ساعديه..

* * *

تعالت خطوات في الممر. فالتفت الضابط إلى الباب الذي مرّ به شرطيان يمسكان برجل مرتد بذلة زرقاء كالتي يرتديها العمال. كان الرجل مدمى الوجه، متورماً لا يقوى على السير. طلب الضابط من العريف أن يغلق الباب، ثم عاد إلى قراءة تقريره.

* * *

أكل غداءه، استرخى في كرسيه، نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط. كانت تشير إلى الثانية والنصف، أغلق عينيه للحظات، فتحها، قام، تناول الصحون الفارغة عن المائدة، عاد بها إلى المطبخ، مسح طاولة الطعام، رتب الكراسي حولها، اقترب من الموقد الغازي، أشعله، وضع ابريق الشاي بعد أن وضع فيه قليلاً من الماء، همّ بالعودة، توقف، تقدم من الموقد، أطفأه، رفع أبريق الشاي عنه، أفرغ منه الماء، ترك الإبريق على المجلى، عاد، استلقى على السرير، تناول علبة التبغ، سحب منها سيكارة، دسها بين شفتيه، تناول الكبريت، اشعل عوداً، قرّب اللهب من طرف السيكارة، أشعلها، أطفأ العود في المنفضة، بين الرماد، سحب من السيكارة نفساً عميقاً، ثم أطلق الدخان من أنفه، استرخى، أغمض عينيه، فتحها، سحب نفساً من السيكارة، نفض رمادها في المنفضة، تساقط قليل منه على طرف المنفضة، كما تساقط بعضه على الطاولة، مدّ يده إلى وجهه. أنزلقت أصابعه إلى شاربيه، داعبها بأصابع نحيلة، شدّ شعيرة نافرة من بينها، قرض بأسنانه شعيرة أخرى كانت منكمشةفوق شفته العليا، قرضها، صدر عن القرضة صوت كتيم.

رفع يده، وضع السيكارة في فمه، سحب نفساً أخيراً، أطلق الدخان، سحق العقب في المنفضة، نزع عنه منامته، ارتدى ثيابه، تناول علبة التبغ، سحب منها سيكارة، أشعلها، خرج، أغلق الباب خلفه، انطلق إلى الشارع عبر باب المبنى، تنفس عميقاً، كانت الشمس لا تزال حامية اللهب، شعر بحرارتها بعد لحظات من السير، قرر أن يحضر فيلماً سينمائياً، دخل الحديقة، مرّ تحت الأشجار الباسقة، ابترد العرق على جلده، دار حول بركة الماء الكبيرة، كانت مياهها بيضاء حليبية قرب النافورة، وزرقاء ساجية على أطراف البركة، ثلاث نساء يجلسن قرب البركة. أحداهن كانت جميلة، جلس على كرسي مقابل لهن. دخّن سيكارة أخرى. كانت النساء يتحدثن بأمور كثيرة. أصواتهن لا تصله مميزة، إنما تتداخل ببعضها. لم يفهم من حديثهن شيئاً، مجرد أصوات متداخلة في صوت واحد يأتيه، قام تابع سيره، عبر أشجار السرو، توقف عندما لاحظ شاباً وفتاة يجلسان على كرسي في الطرف الثاني. مال إليهما، تخطى ممراً حصوياً بين الحشائش، مرّ بهما، جلس على الكرسي الذي يقابلهما، راقبهما. كانا غائبين عما حولهما. هي تميل برأسها على كتفه، هو منحن إلى الأمام، يبتسمان، يتحدثان بخفوت. لم يستطع التقاط كلمة واحدة منهما. أشعل سيكارة أخرى، ظلّ قابعاً على الكرسي حتى انتهى من تدخين سيكارته، قام، ترك العاشقين لوحدهما. تابع سيره، مرّ بالقسم المخصص للأطفال من الحديقة. كانوا يلعبون، يصرخون، يهرجون، تابع طريقه إلى خارج الحديقة، صادف خروجه ثلاث فتيات ناهدات الصدور. خفف من سيره، تأمل وجوههن طويلاً. كن جميلات جداً. تأمل صدورهن، عبرنه، التفت إلى الخلف، تملى أردافهن. تابع طريقه، أسرع خطاه إلى خارج الحديقة، سار في الشارع متوجهاً إلى المقهى..

* * *

توقف الضابط عن القراءة عندما سمع صوتاً جهورياً يمزق سكون غرفة التحقيق.

- أنا بريء.. بر..

انكتم الصوت إثر ارتطام شيء بشيء. رفع نظره إلى العريف الواقف على خدمته، ثم عاد، واخفض رأسه، وتابع قراءة التقرير.

* * *

انتحى ركناً قصياً منه، استرخى في قعدته، حدّق عبر زجاج الواجهة في الشارع، سيارات، نساء، رجال، أطفال يمرون. أتاه النادل بفنجان قهوته، وضعه أمامه بعد أن حيّاه: مرحبا أستاذ. ردّ على تحيته. أشعل سيكارة، شرب قليلاً من الماء، رشف قهوته، وضع الفنجان جانباً، مدّ قدميه تحت الطاولة باسترخاء، سقط صوت بائع اليانصيب في أذنيه، صاح بالبائع أن يأتي، أتاه البائع. قدّم له الأوراق، أخذها منه، عاينها، قرأ أرقامها، سحب ورقة يبدأ رقمها بالصفر، طواها، وضعها في جيبه، دفع

ثمنها. ذهب البائع. تناول السيكارة عن المنفضة، سحب منها نفساً عميقاً، رشف من فنجان قهوته، مرّت أمامه مجموعة من الفتيات الجميلات، لاحقهنّ بنظره حتى اختفين في الجانب الثاني من المقهى، مرّ رجل ذو شارب مضحك، ابتسم لمنظر وجه الرجل، سمع صفارة شرطي مرور تلاحق سيارة مسرعة في سيرها، علا في سمعه صوت بائع جرائد، ناداه، أشترى منه جريدة، فتح على صفحتها الخامسة، طوى صفحاتها الباقية، أخذ من جيبه قلماً، غرق في حل الكلمات المتقاطعة، استعصت عليه كلمة المربعات الأفقية الأولى، كانت الكلمة عن أسم « ثائر » كبير، كان له دور عظيم في إحدى الثورات في العالم. توقف عن حل الكلمات المتقاطعة عدة مرّات، بعد أن فشل في الوصول إلى معرفة أسم الثائر، لاحظ بأن الليل بدأ يخيم في خارج المقهى، أضيئت الأنوار في المقهى، ربت أحد الأصدقاء على كتفه، حيّاه، جلس قربه، سأله: ما بك؟ أجابه: لا شيء، تابع: هل تدري، بدأ الملل يأكل حياتي بشكل فظيع، لا أدري كيف أملأ هذا الفراغ الذي أعيشه. ضحك الصديق، وقال مازحاً: اشتغل في السياسة. أجابه باستغراب: اشتغل بالسياسة؟ هزّ رأسه بأسى وتابع: عندما أجن، وقتها سأعمل في السياسة. ضحك الصديق مرة ثانية. قال: تزوج. هزّ رأسه وقال بصوت أسيان: يلزمني نهب خزينة الدولة حتى استطيع أن أتزوج في هذه الظروف الزفت...

★ ★ ★

وضع الضابط خطاً أحمر تحت الكلمات التالية « نهب خزينة الدولة » وتحت كلمات « هذه الظروف الزفت » ثم تابع قراءة التقرير.

★ ★ ★

جلس إلى جانبه صديق آخر، سأله: من أين أتيت؟ أجابه الصديق: من السينما. سأله ثانية: كيف كان الفيلم؟ أجابه الصديق: ككل أفلام هذا البلد، زفت بزفت. سأل الصديق الآخر: هل هذا يعني أنك خرجت قبل أن ينتصف الفيلم؟ أجابه الصديق الثاني: أبداً، شاهدته حتى النهاية. ثم ضحك، وتابع: لولا ذلك لما أطلقت حكمي على الفيلم، أنا إنسان موضوعي. وضحك. تقدّم النادل، وضع فنجاني القهوة على الطاولة. رشفا الرشفة الأولى، أشعل كل واحد منهما سيكارة. سأل الصديق الأول: هل تسكرون الليلة؟ أجابه الصديق: نعم. ظلّ هو صامتاً يحدّق في الليل الذي أحكم طوقه على المدينة، أصبح الشارع أمامه قاتماً إلاّ من أضواء المصابيح، وأنوار السيارات، وأضواء الحوانيت. سأله الصديق الأول: أنت، ألا تود الليلة أن تسكر؟ أجابه بآلية: بلى... قال الصديق الثاني: هيا، الساعة تقارب الثامنة. أجابه الصديق الأول: إنتظر ريثما أنتهي من شرب فنجان قهوتي. قال الصديق: هل تعرف؟ لقد توصلت إلى حقيقة؟ التفت إليه الآخر. تابع: لقد توصلت إلى قناعة بأن السكر هو العمل الوحيد الذي يمكن للمرء أن يمارسه بحرية في هذا البلد. ضحك الثلاثة. ثم هتف الأول: أنا أشك حتى في هذه الحرية. ضجوا بالضحك، وأحدهم يهتف: عاشت الحرية.

★ ★ ★

توقف الضابط عن القراءة، ووضع خطاً بالقلم الأحمر تحت كلمة « عاشت الحرية » ثم تابع قراءة تقريره..

★ ★ ★

رتب النادل « الزوارق » الصغيرة على الطاولة. ملأ الثلاثة كؤوسهم بالعرق، أضافوا إليه بعض القطع من الثلج. كان العرق في الكؤوس حليبي اللون، رشف من كأسه قليلاً من العرق، تطلع حوله. كانت الأضواء النائسة تشع بين أغصان الأشجار، راقب البطة، كانت ساكنة، تحرك رجليها تحت الماء الشفاف، أشعل سيكارة، سحب منها نفساً، ألقى رأسه إلى الخلف، كانت السماء فوقه سوداء، رأى بعض الأغصان المغمورة بالأضواء، سمع صديقه الأول يقول للآخر: خير أسلوب لتربية المرأة هو الضرب. إعترض الثاني على كلام الأول: قال معلقاً: أخالفك في هذا الرأي. لقد بات أسلوب الضرب عتيقاً جداً، برأيي أفضل أسلوب لتربية المرأة، وإعادتها لحظيرة الطاعة للرجل، هو الاهمال، اهملها، لا تحاول أن... أن.. سكت ولم يكمل، تناول كوب العرق، تابع: في صحتك، رفع الاثنان كوبيهما، رشفا منهما رشفتين من العرق، قذف كل واحد منهما بحبة فستق حلبي في فمه، قال الأول: لماذا لا تشاركنا الحديث؟ التفت إليهما، ابتسم دون أن يجيب، تناول كأس العرق، رشف منه، قال: انتما تتحدثان، وأنا استمع إليكما. قال الثاني: ولكن هذا الموقف غير سليم، إنه موقف أناني، يجب أن تشاركنا. صمت هنيهة، ثم أردف: قل ما رأيك بالكلام الذي قلناه حول تربية المرأة؟ ضحك، مطّ شفته السفلى بغير مبالاة، ثم أجاب متهرباً: انتما متزوجان. أما أنا فلم أتزوج بعد. عندما أتزوج سأدلي برأيي حول هذا الموضوع عن تجربة وخبرة، أما الآن، فرأيي سيبقى مجرد كلام نظري، لا يغني شيئاً. تناول الصديق الأول كأس العرق يبده، قال: هذا الكلام سليم مئة بالمئة. كأسك. رفع كوبه إلى الأعلى، ثم رفع الثالث كوبه أيضاً، قرعوا أكوابهم ببعض، رشف كل واحد منهم رشفة من العرق. وضعوا كؤوسهم على الطاولة، تناول قطعة من الخبز، غمسها في « زورق » الحمص، رفع اللقمة، وضعها في فمه، لاكها ببطء، نظر إلى البطة. كانت تغطس رأسها في الماء، ترفعه إلى الأعلى، تناول قطعة من الخبز، فتتها، ألقى بها إلى البطة، هرعت الأخيرة إلى فتات الخبز، راحت تتناول الفتات بمنقارها العريض الأحمر اللون، وهي تصدر صوتاً مزعجاً. قال الصديق: كفّ يا رجل عن هذه اللعبة، إنها لعبة أولاد صغار. شاركنا في الحديث. التفت إليه، تطلع،

سأل: لم أسمع، ماذا قلت؟ أجابه الصديق: قلت دعك من هذا اللعب، شاركنا الحديث، كنا نتحدث عن أوضاع البلد السياسية. هزّ كتفيه، علق: هذه الأمور لا تهمني كثيراً. عاد إلى تفتيت الخبز. بينما كان البط قد تجمع قريباً منه. سأله الصديق: قل لي: ماذا يهمك إذن؟ أجابه دون أن يلتفت إليه، وهو مستمر في إلقاء فتات الخبز إلى البط: يهمني أن أجد بيتاً غير الجحر الذي أسكنه الآن، يهمني أن يكون راتبي أكبر من هذا الراتب الذي أتقاضاه اليوم لأستطيع أن أعيش به كبقية البشر، يهمني أن أتزوج من امرأة تملأ هذا الفراغ الذي أعيشه، يهمني أن أجد رائحة أنثى في الفراش الذي أنام فيه عندما أذهب إلى البيت في آخر الليل، يهمني أن أسمع في البيت كلمة بابا لأطفال من صلبي، أن أكون أباً لأطفال يملأون بيتي صراخاً، ضحكاً، شجاراً...

قاطعه الصديق الثاني بسخرية: وخراء... ضحك الصديق الأول مع الثاني طويلاً، بينما ظلّ هو يتابع حديثه: أما الأوضاع السياسية وغيرها في هذا البلد.. لتذهب إلى جهنم، وبئس المصير..

* * *

وضع الضابط خطاً بالقلم الأحمر تحت « الأوضاع السياسية في هذا البلد » عندما انفتح الباب، ودخل عليه شرطي برتبة رقيب. تجمد الأخير أمام الضابط بعد أن أدى له التحية، وقال:

- سيدي، لقد تم ألقاء القبض على عامل، يشتبه أنه كان وراء الاضطرابات العمالية الأخيرة في البلد، وسيادة الملازم يعد العدة للتحقيق معه. هل... قاطعه الضابط قائلاً: سأحضر، ريثما انتهي من قراءة هذا التقرير.

* * *

قام الثلاثة، كانوا في حالة سكر شديد، سلك كل واحد منهم طريقاً إلى بيته. كانت الشوارع خالية، الساعة تقارب الثانية، الأشجار ساكنة، أضواء المصابيح شاحبة، سيارات تمر منفردة واحدة إثر الأخرى، تخفف من سرعتها عندما تصل إليه، ينظر سائقها إليه، كأنه يسأله: هل تريد سيارة تاكسي، لم يلتفت إلى أحد، ظلّ سائراً إلى البيت، الأشياء تزيغ أمام أنظاره، تتداخل الأشجار بالأضواء، تلمع صفحة السماء بالنجوم، تميل المباني، تطبق عليه، تهتز الأرض تحته، وتدور، يقف، يستند إلى جدار الحديقة، يتشبث بأسياخ السور الحديدية، يغمض عينيه، يفتحها، يقف للحظات، تمر به سيارة مسرعة، يعلو فيها ضحك لمجموعة من النساء، يلاحق السيارة بنظره، تختفي السيارة في منعطف الشارع، يتابع سيره بقدمين متراخيتين ورأسه مائل إلى الأمام، منكس على صدره، يحس بتراقص الأرض، يرفع رأسه، يحدق أمامه، إنه يقترب من البيت، تتباعد الأضواء، تسود ظلمة في الشارع الضيّق الذي يسلكه، إنه الطريق المؤدية إلى بيته، يرفع رأسه، يرفع وجهه إلى السماء، نجوم بعيدة، ليل قاتم، مبانٍ عالية، أشجار ساكنة، يطرق، يستمر في سيره إلى البيت الذي أصبح على بعد خطوات، توقف، أغمض عينيه، فتحها، تأكد من المبنى الذي وصل إليه، لقد تخطّى المبنى الذي يقع فيه بيته، عاد أدراجه، وقف بباب مبنى، تلمس حديد الباب، تأكد من رقم الباب، إنه المبنى الذي يسكن فيه، التفت وراءه، رأى شجرة التوت، إنه بيته، سعل، تجمع في فمه سائل مالح، كور السائل في فمه، التفت إلى الوراء، بصق بقوة ما بفمه، تطايرت البصقة في وجه الليل، اختفت، مال بجسده إلى الباب، أنسل إلى المبنى، نزل الدرج، وصل إلى باب شقته، فتح الباب، أنسل إلى الداخل، مدّ يده إلى مفتاح المصباح الكهربائي، لم يجده، ملّ من البحث عن المفتاح، جرّ نفسه إلى داخل الغرفة، حاول أن يخلع حذاءه، لم يستطع، استلقى على السرير دون أن يخلع عن جسمه الثياب، ما لبث أن غرق في نوم ثقيل رغم الدوار الشديد العاصف الذي كان برأسه.

كاتب التقرير: العريف...
التاريخ:.....
التوقيع:.....

* * *

انتهى الضابط من قراءة التقرير فوضعه جانباً على الطاولة قرب الاضبارة، ثم التفت إلى العريف، مقدّم التقرير، وقال له:

- سجّل على التقرير بأنه « طولع » من قبل النفيب أحمد... بتاريخ/... ثم ضعه في الاضبارة مع بقية التقارير.

قام الضابط، تناول « عمرته » وثبتها على رأسه، ثم أردف:

- تابع مراقبة هذا الرجل.

سار باتجاه الباب خارجاً من الغرفة وهو يقول في نفسه: « على ما يبدو هذا المواطن يحاول أن يلعب دوراً ذكياً، يحاول أن يوهمنا أن لا علاقة له بالأحداث التي تجري في البلد ».

وقف قرب باب حديدي، وقرع الجرس، ففتح الباب على وجه عسكري شاحب، وصوت أحد المحققين يندفع صارخاً عبر الممر:

- انطق يا إبن الكلب..
- .....

لم يسمع الضابط جواباً على سؤال المحقق، إنما سمع صوت بصقة. فارتد بدون إرادة منه خطوة إلى الوراء، كأنه يتفادى البصقة. ما لبث أن تقدم عبر الممر وهو يقول للعسكري بصوت منفعل نزق:

- هات حزمة جديدة من عصيّ الخيزران.

حلب - ١٩٧٨